إلى أن الأمر يتعدى ذلك إلى المقولات الاساسية مثل مقولة الزمان ومقولة المكان كما سبق ان اشرنا، اذ لدى الناس في مختلف الثقافات تصورات مختلفة من هذه المقولات يهتدي الهوبي ما لا يتصوره الرجل الأوروبي على انه امتداد واستمرار (continuum) يمكن تشبيهه –من هذه الناحية–بالمكان حيث تحتل الأحداث المختلفة (مواقع) معينة في تتابع مستمر لا ينتهي وبحيث يمكن ترتيب هذه الأحداث احدهما بالنسبة للأخر فيقع بعضها بذلك قبل الآخر أو بعده، وانما هم يفكرون في الزمن في الفاظ وحدود البرهة او الآونة الفترة التي تستغرقها التجربة مباشرة، اي انهم يفكرون في حدود (الوقت الحالي) ، أو الان على الأصح أو (قبل الان) أو (بعد الآن)، وبذلك فانهم يميزون بين الأحداث بالإشارة الى قربها او بعدها بالنسبة لوقت الكلام منها ويعجزون عن رؤية العلاقة في الحدوث بينها هي ذاتها أو بالنسبة إلى مقياس زمني موضوعي. فكأن أساليب وطرق التفكير عند هذه الجماعات في الثقافات الأخرى، أو ما يمكن تسميته على العموم بتصوراتهم الجماعية تختلف اختلافا جوهريا عن أساليب وطرق التفكير في المجتمعات المتقدمة الحديثة. وهذا هو السبب في أن الكثيرين من الناس يصعب عليهم أن يفهموا تفكير غيرهم ممن ينتمون الى ثقافات اخري مغايرة او ان يروا الأشياء من نفس وجهة النظر ومن نفس الزاوية وبنفس الطريقة. ورغم كل ما يقال عن امكان التغلغل الى عقول الآخرين في الشعوب والمجتمعات الأخرى وفهم معتقداتهم وقيمهم والمبادئ التي توجه حياتهم فان هذا (التغلغل) محدود ولا يمكن –في رأي الكثيرين من علماء الانثروبولوجيا اللغوية –أن يصل الى رؤية الأشياء والأمور مثلما يرونها تماما، ولو تم ذلك فانه يعني شيئا واحدا وهو الانسلاخ من ثقافة المجتمع الذي ننتمي اليه ودخولنا في ثقافة المجتمع الاخر[1].

***

[1] Hoijer; in Kroeber, op. cit., pp. 561–4.

وهذا ينقلنا الى موضوع اخر له على اية حال صلة وثيقة بكل ما سبق ونعني به موضوع العلاقة بين الفكر واللغة من ناحية وامكان الترجمة من لغة لأخرى من ناحية ثانية. فالمشاهد على العموم وبخاصة في الدراسات الأنثروبولوجية انه كثيرا ما تترجم معتقدات الشعوب غير المتعلمة او (البدائية) الى احدى اللغات الحديثة وبخاصة اللغات الأوروبية، فتظهر هذه المعتقدات بصوره فجة وتبدو غير معقولة وخالية تماما من المعنى وبل متناقضة بعضها مع بعض في كثير من الأحيان ومن الأمثلة على ذلك أن النوير لهم نظرة خاصة الى التوائم ويشيرون اليهم على انهم (طيور)، وحين يعبرون عن تلك النظرة فإنهم لا يقولون أن التوائم يشبهون الطيور وانما يقولون عنهم انهم طيور فحسب. ويقع كثير من الانثربولوجيين في الخطأ حين يتصورون أن النوير يعتقدون أن التوائم البشرية والطيور كائنات متشابهة ومتماثلة من كل الوجوه، بحيث لا يستطيع الرجل النويري ان يفرق بين الاثنين حين يراهما، ومن هنا كان لابد للأنثروبولوجي حين يدرس الثقافة النويرية يحتاج ليس فقط الى أن يفهم أنماط التفكر عندهم فيما يتعلق بالتوائم والطيور بل وان يدرس ايضا لغتهم والصورة التي يعبرون بها عن افكارهم وتصوراتهم عن العالم ونظرتهم اليه، لأن هذين الأمرين مرتبطان معا ارتباطا وثيقا بحيث يصعب فهم أحدهما دون الأخير، فعن طريق فهم اللغة والطريقة التي تستخدم بها يمكن أن يكون للحكم بان التوائم طيور معنى، وأن النويري حين يقول ذلك فانه لا يعني أن التوائم والطيور متماثلان بل يريد أن يقرر أن التوائم يأتون من الله أو من الروح المرتبطة بالسماء التي هي مملكة أو مجال الطيور، وعلى ذلك فان ثمة نوعا من التماثل الفكري أو التصوري الذي يصل الى حد التوحيد بين التوائم والطيور مما يبرر الكلام من التوائم في حدود والفاظ الطيور فالحكم الذي يقرره النوير عن التوائم يجب الإ يؤخذ على أنه قضية علمية تخضع للاختبار عن طريق التجربة بنفس الطريقة التي يمكن بها اختبار قولنا ان الماء يغلي على درجة ١٠٠ مئوية. فالحكم هنا بالتشابه هو من النوع التماثلي أو الشعري بين المفهومين أو الفكرتين، وهذا هو ما سبق للعالم الاجتماع الفرنسي الشهر لوسيان ليفي بريل (Lucian Levy–

(Bruhl أن انته اليه وقرره حين أكد الخاصة الشعرية أو التماثلية للتفكير البدائي. وكما يقول جون بيتي، اننا مازلنا نجهل الشيء الكثير من العمليات الفكرية المنطقية لدى الشعوب الأخرى التي تسلك طرقا أخرى غير الطريقة العلمية التجريبية السائدة في العالم المتحضر الحديث. وهذا نفسه يصدق على الثقافات السائدة في الجماعات الريفية في اوروبا مثلما يصدق على القبائل التي توصف بانها قبائل بدائية. وسوف يكون من التعسف ومن الاجحاف بقدرة اللغة على نقل الأفكار إذا اعتقدنا أن التعبير اللفظي لن يكون له معنى الا اذا تلائم تماما مع قواعد القياس والاستنباط والاستقراء[٢]. انها المهم من هذا هو انه ليس من السهل نقل الفكر من لغة لأخرى نظرا لأن الكلمة الواحدة تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بالفكرة التي تعبر هذه الكلمة عنها وبالظروف الاجتماعية والثقافية بل وبأنماط السلوك ونظرة الشخص في الثقافة المعينة الى العالم ككل، ومن هذه الناحية يكون من الصعب العثور على مرادف حقيقي للكلمة في لغة أخرى مختلفة تنتمي الى ثقافة مختلفة. بل أن بعض الغلاة في هذا الشأن يذهبون الى حد القول بأنه من المستحيل (الترجمة) من جملة الأخرى داخل اللغة الواحدة على اعتبار أن ثمة علاقة عضوية بين الفكر واللغة بل أن الفكر هو اللغة على حد قولهم. وفي مسالة تعرضنا لها في الصفحات السابقة.

---

[2]Beattie, pp. 68-9.